# مؤامرة؟

بعدما قطعت الحيوانات الثلاثة الأرض التي كانت في يومٍ من الأيام غابة؛ اجتازوا أراض كثيرة حتى وصلوا بستاناً جرى من خلاله جدولٌ فازداد زينةً فوق زينته بعدما جمَّلته الأشجار والورد، فقالت لبيبة: «توقف هنا يا ماسيّ، قد نال منّي التعب»، قال الذئب في ذهول: «لكنني حملتك على ظهري طوال الطريق، مم المشقة والتعب أيتها السلحفاة؟»، همهمت لبيبةُ شيئاً ثم قالت: «لقد تعبت من عدم القيام بشيء غير مراقبة الطريق، كما أنني أشعر بالعطش، أنزلني بقرب هذا الجدول فأرتوي من مياهه، وأقصُّ عليكما قصةً عجيبةً لم تسمعا بأمرٍ يشبهها قبل ذلك»، تعجّب رفيقا السلحفاة مما سَمِعاه، فقال فاتك: «أظن أنني بحاجة إلى شيءٍ من الراحة أيضاً، وأظن أنك كذلك أيها الماسيّ، دعونا نجلس بقرب هذا الجدول ونستمع إلى القصة».

أنزل ماسيُّ السلحفاة من على ظهره فمشت على مهلها حتى دنَت من ضِفّةِ الجدول فشربت من المياه التي كانت تتطاير على ضفافه بفضل سرعة جريانه،

كما شرب صديقاها من الجدول حتى ارتويا تماماً وجلس كلٌّ في مكانه ينتظر القصة تبدأ. قالت لبيبة بعد أن أدارت وجهها عن الجدول: «متِّعا أنظاركما بدايةً أيها الصديقان بهذه المناظر الخلابة، بالأشجار العامرة بالثمار والجدول المنساب، بورد الياسمين والأقحوان، بهذه السماء الصافية والهواء المنعش، بكل شيء حولكما.. وتلك هي أسمى أهداف الحياة، أن تستمتع بها»، قال فاتكُ في تململ: «أخبرينا بالقصة يا لبيبة، لا بأوصاف المكان أيتها الحكيمة»، وهزَّ ماسيُّ رأسه يوافق فاتك رأيه، فقالت لبيبة: «إنني أحاول لفت انتباهكما لأمرٍ ما، لكنكما لم تكونا تستمعان أو تلاحظان، فلو نظرتما جيّداً لما أبصرتما في هذا البستان حيواناً واحداً، وإنما يعمُرُ هذا البستان ويزهو بفضل الحيوانات التي تمرُّ من هنا فتقوم بواجبها تجاه تربته وأشجاره وما شابه ذلك، لكنَّ أحداً لا يبقى هنا مدة طويلة»، نظر الذئب والدبُّ من حولهما جيداً فتنبّها إلى كلام السلحفاة، فلم يلحظا أي أحدٍ قطُّ في تلك اللحظة ولم يستشعرا وجود حيوانات غيرهم في البستان، لا في التربة ولا على الأرض أو في المياه، لا حيوانات، لا طيور، لا أسماك، لا حياة حولهما غير التي في الأشجار والأزهار.

قال فاتك: «لربما سئم الجميع المكان وقرروا الرحيل، فكل شيء لا بد أن يُملَّ في النهاية»، قالت لبيبة: «لا، تلك لم تكن الحكاية»، ابتسم الماسيُّ ثم قال:

«هذا أمرٌ عجيبٌ حقاً، أخبرينا أيتها السلحفاة الحكيمة بما دار في هذه الأرض، وريثما تتذكرين القصة وأحداثها سألتقط بعض الثمار، فالعنب هنا يبدو شهياً»، وقبل أن ينطلق الذئب أطلق ضحكةً فيها من المكرِ شيء، غير أن كل ما كان يجول بخاطره كان فرحه بما رأت عيناه من حوله، فحيث يوجِّهُ بصرَهُ ثمّة ثمارٌ شهيّة فوق الأشجار تنتظر من يقطفها فيتلذَّذ بها، تفاحٌ وأعناب، دُرّاقٌ وخوخ وإجاص، بستانٌ أشبه بالحلم لأي حيوان.

صمتت لبيبة وأغمضت عينيها، لا لتتذكر أحداث القصة فذاكرتها القوية ليست بحاجة لإنعاش، لكن لتنتظر ماسيَّ ريثما يعود، وكذلك فعل الذئب سريعاً بعد أن التقط ثلاثة عناقيد، واحدٌ لِكُلٍّ منهم، ثم بدأت لبيبة بالكلام واستمع الذئب والدب لكلامها وهما يأكلان.

»

في هذا البستان، وبقرب هذا الجدول، ومن زمنٍ ليس بالبعيد، ولا بالقريب، عاشت جماعةٌ من القنادس، فحفروا الأنفاق حول هذا الجدول وأقاموا سدّاً عليه، وتمكّنوا بمهارتهم في البناء من إبطاءٍ سرعة تدفق هذا الجدول بشكلٍ كبير، فتشكّلت بذلك مساحةٌ من المياه الراكدة نسبيّاً، ثم اختاروا أركاناً هم أدرى بكيفية اختيارها وأقاموا أنزالهم فيها، فتوزّعت في مواقع مختلفة من مياه

الجدول الراكدة، والنُّزُلُ هو بيت القندس، يكون على شكلِ قُبّة عجيبة فيها نافذةٌ لِيُطِلَّ القندس منها على محيطه، وفي بعض الأحيان تكون القُبَّة مغلقةً تماماً، الأرضية والسقف من الأغصان وأساسات النزل تكون غالباً خليطاً من الأغصان والحجارة والطين، غرفة واحدة صغيرة لكل عائلة، بينما يكون مدخل النُّزلِ الوحيد أسفل المياه على شكل نفقٍ يربطُ بين النُّزلِ والمياه من حوله، ولربما امتلك النزل مدخلان، وفي قِصّتِنا هذه ربطت الأنفاق بين الأنزال ومياه الجدول.

ولقد حظيتُ بنفسي في أكثر من فرصةٍ بزيارة القنادس في أنزالها والتعرُّف على شكل حياتهم وتفحُّصِ شؤونها ومراقبتها بدِقّة، فألمَـمْتُ بطبيعة الحياة التي يعيشون وبتفاصيلها، فعلمتُ أن القنادِسَ تقطع الأشجار ليلاً بأسنانها الأمامية فيقضمون جذوعها حتى يسقطوها، ثم يتناوبون على فصل الأفرعِ والأغصان عن الجذوع، وكذلك يفعلون من أجل الغذاء لا البناء فقط، فهم يُحِبّون لحاء الأشجار، خصوصاً لحاءَ أشجار الصفصاف والبلّوط التي ترونها متواجدةً بكثرة في هذا البستان، كما يأكلون نباتاتٍ خشبيّةٍ مُعيّنةً يُحبّون مذاقها، ولا يُحبّون كثيراً ثمار الأشجار مثل كثيرٍ من الحيوانات، ولقد تشاركتُ معهم في كوني

سلحفاة نباتية، فكنتُ إذا حللتُ ضيفة عندهم يحضرون شتّى أنواع الثمار ليطعموني، لقد كانوا كرماء ودودين دائماً.

في الحقيقة؛ لطالما أحببت قضاء الوقت عند القنادس ووددتُ لو أبقى في أنزالهم أكثر مما تبقى القنادس نفسها، لكن بمجرّد هجرانها لأماكنها يدنو أَجَلُ السدِّ ويقترب الجدولُ من استعادة تدفُّقِه السريع، فلا أحد سيعتني بالأنزال أو بالسدِّ فَيُرَمِّمَ الأساسات بالطين والحجارة والأغصان، ولذلك كان مكاناً لا يصلُح للعيش سوى بوجود القنادس.

لربما تتساءلان الآن لماذا أخبركما عن شكل وتصميم بيوتِ القنادس، وذلك لأنني أعتقد بأنكما لا تعرفان عنها شيئاً، فأحدكما منشغل باللهو واللعب، والآخر سئمَ الحياة مذ وُلِد فحياته في سُباتٍ دائم، ولمِا قلت أهمية في القصة فاستمِعا جيّداً..

في أحد أيام الصيف الحارّة، وبعد غروب الشمس وحلول الظلام في البستان، خرجت القنادس من أنزالها وانصرف كُلٌّ إلى شأنه، فمنهم من أخذ يتمشّى في البستان ليتنعّمَ بنسيم الهواء البارد الذي يقوم بإنعاش وجهه وروحه برِقّة، ومنهم من تسلّق الأشجار ليراقِب المكان من ارتفاعٍ فيفوز بزاويةٍ مثالِيّة لِيُمتِّع أنظاره، ومنهم من قضم أشجاراً ليستعين بأغصانها في البناء، ومنهم من قضم أشجاراً

للغذاء، ومنهم من أسقط أشجاراً أملاً في أن تنموا في أماكنها أُخرى ألذُّ طعماً، ومنهم من أخذ يسبح في الجدول فينعش بذلك جسده ويسترخي في المياه، ومنهم من أخذ يتفقَّدُ نزله أو السدَّ ليتأكد من أن كُلَّ شيءٍ على ما يُرام.

حتى ساعةٍ سمعت فيها جميع القنادس في البستان نَعيقَ غُرابٍ يبدو أن مصدره كان آتياً من حيثُ ينبُعُ الجدول، أي باتجاه المرتفع شمالاً، فوجّه الجميع بصره عالياً نحو السماء يرقَبُ قدوم صاحب الصوت، وكانوا قبل ذلك يعرفون طيوراً وحيوانات فَتَحُلُّ في ضيافتهم في بستانِ القنادس.

حطَّ الغراب على غصنٍ تدلّى بقرب الجدول، ثم تجمّعت القنادس من حولِه بعد أن أخذ يصرخ ويقول: «اقتربت النهاية، اقتربت النهاية»، فأفزع بكلماته القنادس وأجبرها على الاقتراب منه لمعرفة الحكاية، فأحاطوا به من كلِّ جانب، فثَبُتَ كُلٌّ في مكانه؛ على الأشجار، في المياه، على الأرض أو حتى في الأنزال، ووجّهوا أنظارهم صوب الغراب، حتى قال أحد القنادس: «ماذا تقول أيها الغراب؟ أيّ نهاية تقصد؟»، كان الغرابُ يبدو فَزِعاً تظهر عليه علاماتُ الخوف والإجهاد، فطارَ حتى دنا من مياه الجدول فشرب منها ما يُذهِب به جفافَ حلقِه، ثم عاد لِيَقف على الغصن نفسه حيث كان بدايةً يقف، ثم

قال: «لقد جئتُكم بنبأٍ لا يسرُّ السامعين، ينزِعُ الفرحة من القلوب ويمحو الابتسامة عن الوجوه، فيدُبُّ الرُعبُ في الفؤاد ويستوطن، ويتجلّى بعده الخوف الأكبر والخشية من الزوال، نبأٌ لربما يكون آخر ما تسمعون أيها القنادس وآخر ما تعرفون عن هذا العالم وأخباره، وصَدِّقوني إنني لأخشى عليكم مما قد يحدث، فخوفي تجاهكم هو خوفي على أبناءِ جنسي من الغربان، وهذا ما جاء بيَ الساعة، لقد علمتُ أنّكم من مدّةٍ تعرَّضتُم لهجوم دُبّينِ متوحّشين أرادا السوء بكم وبأحبابِكم، لكنكم بفطنةٍ كَمَنتُم لهما فرجمتموهما بالحجارة بعدما اختبأتم في كُلِّ ركنٍ من أركان هذا البستان، وقد علمتُ أنكم استخدمت ذيولكم القوية في قذف الحجارة فآلمتم إذ أصبتم، وقد فقد أحد الدُّبينِ عينه وكان الآخر على شفير الموت، لكنهما وبقدرةٍ عجيبة تمكّنا من النجاة والهرب، ومما علمته أنهما قد عزما أمرهما على رَدِّ الصّاع لكم، فَأَجمَعا أمراً هو أشرُّ مما قد يخطر على بال أحدكم»، سكت الغراب قليلاً إذ شعر بالعَطَش مرةً أخرى وهمَّ بالنزول إلى الجدول مجدداً، وريثما هو يقوم بذلك قال أحد القنادس: «وهل تَظُنُّ أيها الغراب أن ذلك النبأ يخيفنا أو يُغيّرُ شيئاً من حقيقة قُوَّتِنا واتّحادنا؟ نحن القنادس أيها الغراب، لا نخشى الوحوش مهما كان الشكل الذي تأتي عليه، فإذا أجمع الدُّبان أمرهما على العودة فليترقّبا نفس

العذاب الذي أذقناهما إياه في المرة الأولى»، وتصايحت القنادس فيما بينها بعد أن ملأت نفوسها الحماسة، وسَرَى في عروقهم شعورٌ بالصلابَةِ التي استَمدّوها من قُوّة الكلمة، كان شعوراً صادِقاً سواءٌ أصادِقةٌ كانت هي تلك الكلماتُ أم كاذبة.

كان الغراب قد عاد إلى موقعه على الغصن، فقال: «هو الحمار وحده الذي يقترف الخطأ ثم يكرره دون أن يتعلّم منه، وهذه دببةٌ لا حمير، قد قصدا الغابة الشرقية وبحثا في أرجائها حتى عثرا على صخرة ضخمة هائلة الحجم، فدحرجاها حتى وصلا بِها إلى النقطة التي يفترق بها الجدول عن النهر الكبير، فرميا بها في تلك النقطة فسدّا تَدفُّقَ الجدول وقطعا عنه إمدادَهُ من المياه، ثم قالا: «لَئِن تمكّن تيّارُ النهر القويّ من دفع الصخرة ستندفع معه حتى تصِلَ أسفل الجدول عند البستان، فتقعَ على أنزالهم وتُدمِّرَ سدّهُم وتقتل منهم الكثير، وأما من ينجوا منهم فلن يجِد وقتاً للحزن على فِراق من سيموت من أصدقائه حتى نباغتهم فنقضي على البقيّةِ الباقية، أمّا إن ثَبُتَت الصخرة في مكانها فسينحسر الجدول شيئاً فشيئاً حتى يَجِفّ عن آخره، فإذا أتت القنادس لترى ما المشكلة كُنّا لها متربِّصين ها هنا حتى نصطاد آخرَ واحدٍ منهم»، ولربما لا تشعرون أيها القنادس الآن بانحسار جدولكم ولكن هذا أمرٌ لا بُدَّ أن

تلاحظوه قريباً إن وقفتم مكتوفي الأيدي، فانظروا أمركم يا أصدقائي من القنادس، فهذا أمرٌ جَلَلٌ يتطلَّبُ الردَّ السريع وإلا هَلَكتم جميعاً».

تبادلت القنادس النظرات والهمسات حائرين في أمرهم، وشعروا بالخوف والضعف أمام مصيبةٍ بذلك الحجم، فتناثرت من حولهم الكلمات والآراء والاقتراحات، فكان الرأي الأول لجماعةٍ منهم؛ «لا طاقة لنا بالخروج لقتال الدببة مجدداً، فنحن نجونا بأعجوبة من خطر المرة الأولى، ولا شيء يضمن لنا أننا سنعود أحياءً إذا ما هاجَمْنا الدببة حيث تستوطن»، ولاقى هذا الرأي استحسان ضِعاف القلوب والهِمَم، بينما قال رأي الجماعة الثانية: «إن كان موتنا هو النهاية الحتميّة المحتملة في حال أَغَرنا على الدببة؛ فذلك هو الحلُّ الوحيد المتبقي لنا، لا يمكننا الجلوس هنا وانتظار الصخرة العظيمة لتقع فوق رؤوسنا»، ولاقى هذا الرأي استحسان جماعةٍ أخرى من الشجعان الذين يريدون حماية أنفسهم وموطنهم وعائلاتهم، لكن معظم القنادس كانت في حيرةٍ من أمرها فلم يميلوا نحو هذا الرأي أو ذاك، فتبادلوا آراء أخرى يريدون معرفة من يوافق على هذا ومن يوافق على ذاك، ولماذا وما هو الخيار البديل إن وُجِد؟ فقال أحدهم: «إن الجدول ما زال يجري، وهذا يعني بأن الصخرة لم تَسُدَّ طريق

المياه تماماً أيها القنادس، لماذا نكترث للأمر إذاً؟»، فردَّ عليهِ آخرُ وقال: «لربما يكون هذا صحيحاً، لكنَّ خطر تحرُّكِ الصخرة من مكانها واندفاعها نحونا يبقى خطراً قائماً، ولذلك يجب أن نقوم بفعلِ أمرٍ ما»، وتابعوا تبادل الآراءِ فاختُزِلَ الصوابُ فيما يَرى صاحِبُ كُلُّ رأيٍ أنه الصواب.

وبينما هم في أمرهم ذاك طار الغراب بعيداً وحطَّ مكانه بلبلٌ جميل، لكن الجميع كان مشغولاً فلم يلحَظهُ أحد، فغرَّد بصوته الساحِرِ فتنبّهوا لأمره ونظروا نحوه، فقال: «يا أصدقائي القنادس، قد جِئتكم بخبرٍ عظيم، ثقيلٌ وقعُهُ على آذانكم، تقشَعِرُّ له الأبدان وتتجمد لسماعه الدماء في العروق، لقد كنت أُحلِّقُ فوق النهر الجميل أعلى المرتفعات بعد أن قطعتُ الغابة الشرقية، إذ بي أُفاجأ بصخرةٍ عظيمة تَسُدُّ النهر في النقطة التي يتفرَّعُ الجدول منها، فاحذروا يا أصدقائي وأجمِعوا أمركم على الحيطة والحذر، وبادروا بالدفاع عن أرضكم ذلك خيرٌ لكم من انتظار المصيبة أن تَحُلَّ فتفنيكم جميعاً، قلتُ ما أريدُ وحذَّرتكم وهذا دوري، أما الباقي فعليكم، إلى اللقاء»، ثم طار إلى السماء واختفى في الأفق البعيد، فلم تَزِدهم كلماتُ البُلبُلِ إلا خوفاً وقلقاً، بل إن الرُّعب كاد أن يسيطر على الجميع لولا أن أحدهم يقالُ له المستدير قال: «ما بالكم؟ هل صدَّقتُم كلام البُلبُلِ ومن قبله الغراب؟ هل سمعتُم يوماً عن دُبٍّ يصنع المكائِد

ويضَعُ الفِخاخ؟ هذا لا يكون يوماً، فذاك فِعلٌ من فِعالِ الغربان والثعالب والأفاعي، ولربما نقلوا العدوى إلى البلابل»، ثم تحرَّك المستديرُ من مَكانه داخل النُّزُلِ وصعدَ فوق القبّةِ وقال بصوت مرتفع: «يا أبناء شعبي الأعزاء، إنما هذه مؤامرة، نعم.. مؤامرة علينا نحن القنادس، فإذا نحن خرجنا لقتال الدِّببة كُنّا بحاجة لقوتنا مجتمعة بجميع أفرادنا، وبهذا لَن نُخلّي وراءنا سوى الأطفال والنساء، بينما سيذهب البقية للمعركة، فإن نحن انتصرنا باتّحادِنا وَعُدنا وجدنا الغربان قد احتلّت مكاننا، ولربما كانوا مُتَّفقين بخُطّة مشتركةٍ مع البلابل وآخرين، لا ندري من العدو اليوم يا أصدقاء، إنهم يريدون أرضنا الحبيبة وبستاننا الجميل وجدولنا الصافي، فاحذروا الخديعة أيها القنادس»، تبادل الجميع النظرات بين مُصدّقٍ وآخر غير مُدرِك، حتى قال أحدهم يُدعى الفَطِن: «إذاً لا بُدَّ لنا أن نتأكَد من صِحّة الأخبار التي وصلتنا، فتخرج مِنّا جماعةٌ ليتأكدوا ما إذا كان هناك فعلاً صخرَةٌ أم لا، وبذلك نقطع الشكَّ باليقين، ما قولكم؟»، لكن المستدير لم يعطي أحداً فرصة للتفكير في كلام الفَطِنِ فصرَخَ في وجهه قائلاً: «أتريد أن نُضحّيَ بأبناءِ شَعبِنا العزيز في خُطّةٍ واهيةٍ كتلك؟ ولماذا؟ كي يُقتلوا عند وقوعهم في أوّل فخٍّ وضعته الغربان؟ لا أيتها القنادس لا، هذا لا يجوز، هي أخبارٌ ما لنا فيها إلا سماعها ثم الإعراض عنها، إنها مؤامرة

تُحاكُ ضِدّنا، تُريدُ الطيور اللعينة أن تستولي على بستاننا لِتسرَحَ وتمرَحَ فيه، فتأكل من ثمارنا المتنوِّعة وتشرب من مياهنا الصافية أو تسبح فيها، تستَظِلُّ بِظلالِ أشجارنا أو تقطعها، تتسلَّقُها، أو تعيش فوقها وكأنها مِلكٌ لها، وتلعب فوق عشبنا وتستريح فوقه، ولربما أعجتها أنزالنا فاستوطنت بها، ما بالكم؟».

احتَدَمَ الجِدالُ بين طرفٍ مُؤيّدٍ للمستدير وكانوا كُثُراً، وطرفٍ يُؤيِّدُ الفَطِنَ وكانوا قِلَّة، وبينما هُم في أمرهم إذ حطّت بومٌ بيضاء اللون على جذع شجرة قريبة من محيط الجدول، ولم ينتبه إليها أحدٌ لِخِفَّةِ تحليقها وسكونِ هبوطِها على الجذع، فطارت من مكانها ولامست مياه الجدول بطرفَيْ جناحيها وهي تُحلِّقُ فوقه حتى التَفَتَ إلى فِعلِها الجميع، وعادت لتطير في السماء ثُمَّ نزلت على جِذع الشجرة والجميع ينظر نحوها، فقالت: «أيها القنادس، قد كنتُ في ضيافَتِكم وأحببتم عِشرتكم، لم تخونوا ولم تغدِروا بل كنتُم أطيبَ من عرفتُ فوق هذه الأرض، ولذلك عندما سمعتُ بالأمر الجلل، والمكيدة العظيمة التي أحاطت بكم، قلتُ لا أستريح حتى أصِلَ القنادس فأقُصَّ عليهم الأمر فأكون لهم عوناً لعَلّيَ أرُدُّ شيئاً من جميلهم عَلَيّ، سمعتُ يا أصدقائي من الأرانِب أن الأخبار وصلتهم بأنَّ دُبَّينِ قد أرادا بكما الشَّر وعزما أمرهما على ذلك، فأرادا أن يُدَحرِجا صخرةً عظيمة فيسُدّا بها النقطة التي تفصِل الجدول عن النهر،

لكنهما لم يستطيعا ذلك، فتحالَفا مع عدَدٍ من الذئاب والثعالب حتى دحرجوها بقوَّتِهم جميعاً، ولِقاءَ تلك المساعدة وَعَد الدُّبّانِ جميع المشاركين بأنهما سيجزيانِ كُلَّ مُشاركٍ قندُساً مكافَأةً له على المساعدة، وذلك يكون بعد إغراق منازلكم واصطيادكم يا أصدقائي، احذروا الكارثة القادمة واستَعِدّوا لها وأعِدّوا الرَّد سريعاً، باغِتوا أعدائكم قبل أن تطالَكُم يَدُ الغدرِ الغاشمة، فإني سأحزَنُ حُزناً ما بعده حزنٌ إن فارقتم هذه الحياة، سأطير الآن لأسمع إذا ما وردت أخبارٌ جديدة، وسأعودُ إليكم بأسرع وقتٍ إذا ما سمعتُ أمراً يعنيكم أو يهمُّكُم سماعه، مع السلامة»، ثم طارت البوم بين الأشجار واختفت سريعاً من محيط الأبصار.

قال الفَطِن بعد سماع كلامِ البوم متوجِّهاً لمن حوله: «يبدو أن أساسَ القِصَّة صحيح، لكن انتشارها مكَّن الأكاذيب من مُخالطة الحقيقة، نحن في مصيبة أيتها القنادس، ويجب أن نتحرَّكَ لإنقاذِ أنفُسنا الآن وإلا هلكنا»، وبينما كانت الشجاعة تتجهّزُ لِتُغَلِّفَ قلوب القنادس فيجمعوا رأيهم على رأي الفَطِن ويتبعوه فيما قال؛ إذ قال المستدير الذي لم يُفوِّتِ الفرصة: «أيُّ مصيبةٍ أيها الغبي؟ إنها مؤامرة، قلتُ لكم قبل مجيءِ البوم أن الطيور قد أجمعت أمرها يريدون أن يأخذوا بستاننا الجميل من بين أيدينا، فإن نحنُ فرّطنا به ماذا يبقى

لنا؟ قولوا لي ماذا يبقى لنا؟ وها قد أكّدت بومة الشؤم المؤامرة التي تُحاكُ في الخفاء من أطرافٍ نعلمها ونجهلها فهم كثيرون، إنها مؤامرة عظيمة الشأن لا تتكشَّفُ علاماتها إلا للمبصرين المتَنَبِّهين، لا للمندفعين نحو التهلُكة مثلك أيها الفَطِن ومن معك، لا تنفَكُّ الطيور تأتي الواحِدَ تِلو الآخر يخبروننا بالقصة التي اتفقوا عليها يظنوننا ساذجين إلى ذلك الحد، لم تنفع حيلة الغراب والبلبل، فجاءت البوم بقصَّةٍ فيها أعداءُ أكثر تريد أن تخيفنا بها، لكنها لم تعلم من نحن، نحن القنادس العظماء، لنا في هذا المكان الكثير، والكثيرُ من الحيوانات تشهد على ذلك، يجب أن نبقى في أرضِنا لندافع عنها، ومن يريدُ أن يفقِد حياته فليذهب لوحده أعلى المرتفع فيتأكد من صِحَّة الأمر، لكنني قد قلتُ لكم واسمعوها مِنّي قبل أن تسمعوها من غيري؛ إنها مؤامرة!!».

ولِأن التخاذل والتكاسُلَ أسهل من الإقدام؛ لم يبقَ أحدٌ يُسانِدُ الفَطِن في رأيِه واتّفقَ الجميع على أن ما يحدُثُ هو؛ مؤامرة، مؤامرةٌ تَحيكها الطيور ضدَّ القنادس، فيها يجتمع الدببة والذئاب والثعالب ضِدَّهُم، لكن الفَطِن كان أكثرهم بصيرة فأدرَكَ وفَهِم أن القِصّة عندما تسافِر تتغير تفاصيلها، فيُضافُ عليها كثيرٌ أو ينقُصُ منها كثير، لكن المضمون هو نفسه لا يتغيَّر، فالأساس إن تغيَّر أمست قِصةً مختلفة، كما لم يكن كلام المستدير صحيحاً تماماً،

فالقنـادِسُ لم يسـتوطنوا البسـتان منـذ الأزل، فهـي الأرضُ لا يملكهـا إلا مـن ينتزعها ويستقِرُّ فوقها، وهذا هو عالم الحيوان يا صديقاي، ومع هذا فقد كان تصديقه أسهل من تكذيبه لما في المعارَضَةِ من جُهدٍ يبدو أن أحداً لا يريد بذله، حتى ولو كان الفناء هو الخطر المحدِقُ بالقنادس.

ولفقدانِه الدعم والمؤازرة؛ كان الفَطِنُ قد عزم أمرهُ بأن يصعَدَ المرتفعَ لِوحده، فيمضي في طريقه حتى يصل النقطة التي ينبثِقُ منها الجدول فيندفع جنوباً بينما يُكمِل النهر طريقهُ غرباً، فيتأكد من صِحّة الأخبار التي وصلتهم على لسان الطير.

لكن وقبل أن ينطَلِق الفَطِن في رحلته؛ وأثناءَ ساعات الليل القصيرة؛ قَرَّرَ أن يخبر زوجته بما هو مُقدِمٌ عليه، فقال لها: «اسمعي يا عزيزتي ما سأقولُ لكِ واعملي به، ولا تخالفي رأيي فأنا أدرى منكِ بنفوسُ الضِّعاف المتخاذلين عندما تخالُها الأعيُنُ نفوسَ حكماء ذوي بصيرة، وما المتخاذِلون في الحقيقة سوى أكِفّاء لا يبصرون، أو أن التواني في الدِّفاع عن حيواتنا قد راقَ لهم، ولذلك وجب أن أندفع لوحدي في هذا الشأن فأعمل جهدي أن أصلحه مهما كان الثمن. إذا لم أعد يا عزيزتي خلال ثلاثة أيام؛ أريدُ منكِ أن تأخذي صغارنا وترحلي عن هذا المكان بلا عودة، فالهلاك قادمٌ لا محالة»، قالت زوجة الفَطِن

بلا تردُّد: «بل أنتظِرُكَ حتى تَرجِع، وإن أنت أردتنا أن نرحلَ عندها سنرحَلُ سويَّةً لا دونك يا زوجي»، قال الفَطِن بنبرةٍ حزينة: «إن كان أبناءُ شعبي العزيز في خطرٍ فلا بُدَّ لي أن أخاطر بحياتي لأعرف الحقيقة، فإذا رأيتُ الصخرة وأنا متيقِّنٌ بأنني سأراها؛ سأُحاوِلُ أن أعود بأقصى سرعة، فإذا استطعتُ أن أرجِعَ سالماً سَأُحذر الجميع ونخرُجَ فنرى كيف العمل، ولكن إن لم أرجِع؛ لا أريدُ لكِ ولصغارنا الأذى والهلاك، فاخرجوا من هذا البستان واقصدوا مكاناً تجدون فيه الأمان والرّاحة واستوطنوا هناك»، صمتت زوجَةُ الفَطِن قليلاً تُفكِّر، ثم قالت بعد أن لملَمَت أفكارها: «لا، لن أفعَل، إن كانت خُطَّتك هذه تدور حول إثباتِ وجود الصخرة لبقيّة القنادِس؛ فتوجد أكثر من طريقةٍ لفعلِ ذلك دون تعريض حياتِك للخطر»، قال الفَطِن: «ماذا تقصدين يا نبيهة؟» وكان كما يُقال؛ لزوجة الفَطِن من اسمها نصيب، فأجابت نبيهة: «أنتَ الفَطِنُ أشجَعُ القنادِسِ وأذكاهم، وأنت زوجي وأعلَمُ أنك تكترِثُ لأمر الجميع لا لنفسِكَ فقط، لكنَّك وَبكُلّ الصفاتِ تلك فإن واجهتَ دُبّاً فستقتل دون أدنى شك، بل إن واجهت ذئباً أو ثعلباً أو حتى ضبعاً وأنت في طريقك إلى هناك فلن تتمكّنَ من النجاة، وبهذا لن تعلم حقيقة الأمر، وستكون قد فرّطتَ في حياتِكَ دونما طائل، وإن أردتَ رأيي في هذه المسألة، فأنا أرى بأن تجمَعَ من

النباتاتِ ولِحاء الأشجارِ ما يكفيكَ ثلاثة أيام بلياليهنّ، وتلكَ هي المدَّةُ التي تحتاج للوصول إلى النقطة المطلوبة والعودة إلى البستان، لكن عوضاً عن فعل ذلك ستخرُجُ بعد توديع الجميع فتسير شمالاً حتى تَصِل إلى نقطةٍ تغيب فيها عن أنظار جميع من في البستان، ثم ستحفرُ نفقاً بقرب الجدول وستبقى هناك لثلاثة أيام بلياليهنّ، فإذا انقضت المدة المحدّدَةُ خرجتَ من مخبئكَ ذاك وعُدتَ فَزِعاً تصرُخُ وتقول بأن الصخرة حقيقة، وبذلك سيتحرّكُ الجميع وفقاً لروايتك وسينسون أمر ذلك المستدير وما يقول، ما رأيُك بكلامي؟».

صمت الفَطِن قليلاً مندهِشاً من كلام زوجته، فكَّر قليلاً ثم قال: «ماذا تقولين يا نبيهة؟ أتريدينَ مِنّي أن أخدع شعبي؟ ولو افترضنا أنني فعلت ما تقولين، ما أنا فاعلٌ إن صعدنا بأعدادنا الكبيرة ووصلنا حتى النُّقطَةِ المطلوبة ولم نَجد صخرَةً هناك؟ أأقول بأنني كنتُ أتخيَّلُ الأمر فقط؟ لا، لا أفعل هذا أبداً»، قالت نبيهَةُ سريعاً: «أنت ستخدَعُ فئةً من شعبِكَ لأجلِ جميعِ شَعبِك، وأمّا بشأنِ ما إذا كانت الصخرة موجودة هناك أم لا؛ فعند عودتك قُل للقنادِسِ أنّكَ سمعتَ في طريق العودة من الأرانب؛ أن الدّبَبَةَ قد مَلَّتِ الانتظار وَتُخطِّطُ لنقلِ الصخرة من مكانها ذاك إلى نقطَةٍ أعلى في النهر، حتى تكتسب الصخرة سُرعةً وقُوّة اندفاعٍ أكبر لعلها لا تعلَقُ مجدداً في موضعٍ محدَّدٍ فتستمر بالجريان

مع تيّارِ الجدول، وبذلك ستتجنَّبُ أصابعَ الاتّهامِ في حالِ لم تجدوا الصخرة، لكن.. في الحقيقة لديَّ حَلٌّ أريد أن أقترحه عليك سيساعِدُك فيما عزمت أمرك عليه، لكن عليك أن تُركِّزَ في سير الأحداث جيّداً وسأعيد عليك الأمر في النهاية كي تفهم ما أقول وتحفظ»، قال الفَطِنُ وقد بدأ يشعُرُ بالإعجابِ بما تقول زوجته وقد دبّت الحماسة في أنحاء جسده يريد معرفة المزيد؛ «ما هي خُطَّتُكِ يا نبيهة؟»، قالت زوجته؛ «إن الأمر لن يكون سهلاً على أيِّ أحدٍ منكم، لكنه حَلٌّ يتوافق مع المشكلة المطروحة، يقينا شروراً لا نعلم أهو حقيقيٌّ أم لا، ويحفَظُ أبناءَ شعبنا وموطِنَنا من كُلِّ سوء. سوف تخرجون في ثلاث جماعات، كُلُّ جماعةٍ تتكون من عشرة قنادس أو ما يقارب ذلك، ويبقى الآخرون هنا في البستان للحماية من خطر تلك المؤامرة التي لا ندري صِحَّتها، وبذلك نضمن عدم اعتِراضِ المستدير مجدداً على كلامِك، ثمَّ تنطلقون حتى موضِع الصخرة فإذا وجدتموها باشرتم بِوَضعِ خُطَّةٍ مناسِبةٍ لمعطياتِ موقعها وكيف ستَحُلّون تلك المعضلة، لكن دعني أحذِّرَك من الدُّبين إن كانا هناك فعلاً فتلك مشكلةً حَلّها بسيط، في البداية أنت لن تقول بأنك رأيتهما فذلك سَيُفزِعُ من ينوي الخروج معك، لكن إن وصلتم هناك وأبصرتم الدُّبين؛ فهناك توجد الغابة الشرقية بالقرب من النقطة التي يُزعَمُ أن الصخرة عندها؛ فإذا

أبصرتم الدُّبين فاقصدوا الغابة واجمعوا كُلَّ التوت من على الأشجار ثمَّ ادفنوه في حفرةٍ في نهاية الغابة، وانتظروا أن تجوعَ الدِّببة فترى الأشجار خاوية، فتنشغل بحلِّ اللغز وتَتَبُّعِ رائحة التوت فتبحثَ عن الحُفرة، وبذلك سيضيع وقت الدببة في البحث، ثم وإن وجدا الحُفرة سَيَضيع مزيدٌ من الوقت في تناول كُلّ التوت كي لا يفسد بعدما تم قطفه، وذلك سيكسبكم وقتاً كافياً للقيام بأمرٍ ما بشأن تلك الصخرة»، قال الفَطِنُ وعلامات الدهشة والإعجاب ظاهرَةٌ على مُحيّاه: «أين كنتِ تخفين هذا الذكاء والدهاء يا نبيهة، إنها خُطّة متكامِلَةٌ مُتقنة، يا لهذه الخُطّة..»، قالت نبيهة: «من الجيّدِ أن الخُطّة أعجبتك، دعني الآن أُعيدُ عليك ما يجب فِعلُه بالترتيب حتى لا تنسى؛ أولاً ستجمع من البستان طعاماً يكفيك ثلاثة أيام بلياليهِنّ، ثم سَتُخبرُ الجميع صباحاً بأنَّكَ مُغادِرٌ لترى إن كانت الصخرة موجودةً فِعلاً أم لا، ستغادر وتتوجّهُ شمالاً حتى يختفي البستان عن ناظريك ولا يعودُ بإمكان أحدٍ أن يراك، ثم ستحفر نفقاً أسفل تلك النقطة من الجدول وتبقى هناك المدَّةَ المحددة، ما إن تَرجعَ حاول أن تتظاهر بالخوف والفزع والاضطراب، ثم أخبر الجميع بأنّك رأيتَ الصخرة لا الدِّببة وأن المصيبة حقيقةٌ لا مؤامرةٌ كما زعم المستدير، ثم أخبرهم بأنك سمعتَ في طريق العودة عن نِيّةِ الدُّبين بنقل الصخرة من مكانها،

وأن عليكم الإسراع إلى ذاك المكان، وإذا ذَكَر أحدهم أمر الدُّبين يريد إخافة القنادس؛ عندها تُبادِرُ أنتَ فتعرِضُ الخُطّة التي قلتُ لكَ وقُل أنك صنعتها في طريق عودتِك، ثم اشرعوا بتنفيذها يا زوجي العزيز».

سكت الفَطِن لوهلةٍ من الزمن، ثم قال: «لا أدري كيف أشكُرُكِ على كُلِّ هذا يا زوجتي العزيزة»، أجابت نبيهة: «بأخذِ جانِب الحذر والحيطة في رحلتك، وبالعودة سالماً إلينا يا زوجي العزيز»، قال الفَطِن: «سأعمل على ذلك يا نبيهة، انتبهي لنفسِكِ وللأطفال».

ثم انطلقَ الفَطِنُ فجمع طعاماً يكفيه المدّة التي سيقضيها خارج النُزُل، وانتهى من فعله ذاك تماماً عند بزوغ الفجر، ومع أن القنادس غالباً ما تبقى في جحورها صباحاً وتخرج مساءً؛ إلا أن الفَطِنَ كان قد أيقظهم جميعاً وأخبرهم بما عزم على فعله، ثم مضى قبل أن تَحُطَّ القنادس من عزيمته إذا ما تناولت أمره فيما بينها، لكن الغريب كان أن أحداً منهم لم يعتَرِض، بل أعجَبَ الاقتراح معظمهم، خصوصاً المستدير ومن شاركه رأيه في أن المؤامرة هي الإجابة على ما يجري، فقد عرفوا أن ذلك الحلَّ سيقيهم مشقّة الرحلة الطويلة، وخطورة المجهول، ويدفع عنهم ما لم يحيطوا به، فكان ذهابُ الفَطِن لوحده هو فوزٌ لجميع الخاسرين.

مضى القُندُسُ المرتحِلُ في طريقه حتى وصل لنقطةٍ لا يستطيع أحدٌ من قنادِسِ البستان إبصاره فيها، فشرع بالحفر مستعيناً بأظافره الطويلة والحادّة، فحفر نفقه بقرب الجدول ثم غطّى المدخل بأغصانٍ وأوراق أشجارٍ كان قد جمعها من البستان عندما جمع طعامه، واختبأ في مكانه ثلاثة أيامٍ لم يفعَل فيهِنَّ غير تناول الطعام والشراب واستراق النظر من مدخل النفق لمعرفة الوقت وحسابه حساباً دقيقاً، وكذلك فعل، فلمّا انقضت المدّة المطلوبة خرج من مخبئه فملأ جسده من التراب والطين والقاذورات، وكان قد تناول آخر ما يملُكُ من ثمارٍ قبل نحو نصف يوم، ولذلك قد ترك الجوعُ على مظهره بصمةً واضحة فشحب لونه وبدا ناعس العينين إذا نظرت إليه، ثم هرول عائداً إلى البستان بحالته تلك، فلمّا وصل قصَّ على الجميعِ روايةَ نبيهة التي أضافَ عليها بعض التفاصيل لتصبح أكثر إثارة، فقال أنه رأى الصخرة العظيمة، وأنه استشعر قُربَ الدِّببة لكنه لم يراهُم في أي نقطة قريبة من الصخرة، ثم حكى للقنادس قِصّةَ لقائه الأرانب في طريق العودة وإخبارِهم إياهُ بِنِيّة الدِّببة بنقل الصخرة من مكانها، وحتى المستدير في تلك اللحظة لم يستطع معارضة ما يجري، واكتفى بكلماتٍ معدودة فقال: «ومع أن هذا الأمر لا يروق لي وأشعر بأن المؤامرة

قريبَةٌ مِنّا؛ إلا أنني سأشارك فيما أجمعتم أمركم عليه»، وكان ذلك رغماً عنه لا بإرادته.

قسّمت القنادس نفسها إلى سِتِّ مجموعات، فانطلقت ثلاثُ مجموعاتٍ في رحلةٍ نحو رأس الجدول، وبقيت ثلاث مجموعات للحماية في حال هجوم الذِّببة، ومع أن المستدير عارض تلك النقطة فقال أن حماية البستانِ ستكون من الخوفِ من غدر الطيور لا الذِّببة؛ إلا أنهم لم يختلفوا في ذلك الأمر بما أن البقاء في البستان كان غايةً مشتركة.

انطلق الفَطِن مع الجماعة المتوجِّهينَ نحو الصخرة، ومع أنه كان قد أخبرهم بشأن احتماليةِ أن تكونَ قد نُقِلت عند وصولهم؛ إلا أن الخوف لم يُفارِقه بتاتاً، فلم يفارقه الشعور بآلامٍ في المعدة طوال الطريق، وبينما لم يُفكِّر هو سوى في أمر وجود الصخرة من عدمه، كان قد انشغل تفكير بقيّة القنادس من المشاركين في العملية بأمرٍ آخر، فإنَّ المهمة ليست صعبة على حفّارين مهرة مثلهم، لكنها محفوفة بالمخاطر وتتطلب جهداً عظيماً لإتمامها، فإذا علمت الذِّبَبَةُ بالأمر فلن يُمكِّنوهم من إتمام الحفر وبذلك ستفشل الخُطّة، فتبادلوا الآراء في تلك المسألة حتى شرح لهم الفَطِن خُطّة نبيهة فقدّمها على أنها نتاجُ تفكيره فقال؛ «لا تقلقوا من تلك المسألة فشأنها بسيطٌ لا يُقلِق، فإذا صحَّت الكلمة

بوجود الدِّببة بالقرب من حيث يفترض أن نبدأ الحفر؛ فسنتسلَّلُ بدايةً إلى الغابة الشرقية، فهناك أشجارُ توتٍ كثيرة، سنجمعُ كُلَّ التوت الذي على الأشجار فلا نترك حبّةً واحدة، ثم نأخذها فندفنها في نهاية الغابة الشرقية، فإذا جاعت الدِّببة ولم تَجِد ما تأكُلُ على الأشجار؛ تتبعت رائحة التوت حتى تجِده، لكن علينا أن نعمل بأقصى سرعتنا وأن نبذل كل ما نملك من طاقةٍ للانتهاء من الحفر في تلك المدّة التي سيقضيها الدُّبانِ في تناول التوت، وإلا فإن مصيرنا وشعبنا في البستان هو الهلاك»، أُعجِبت القنادس بالخُطّة من المجموعات الثلاث وكان عددهم يُقارِب الثلاثين قندساً، فاطمأنوا لوجود خُطّة مصوغةٍ بإتقانٍ تقيهم مخاوف الفشل، وأثنوا على الفَطِن ذكاءه، وتقبّل الفَطِن ذلك شاكراً وجود زوجته في حياته.

مشت القنادس في اليوم الأول حتى قطعوا ما يقارب نصف المسافة، فقد كانت الهمَمُ مشحوذةً والعزائم مُتّقِدة ومشتعلة بنيران المبادرة والإقدام، والقلوب ملتحفة بغطاءِ الشجاعة والصلابة، فحفروا الأنفاق حيثُ كانوا يقفون عندما حلَّ الظلام وأمست متابعة الطريق أمراً خطيراً في ظِلِّ احتمالية وجود حيوانات

متربِّصة في المنطقة، وهناك باتوا ليلتهم، وقطعوا في اليوم الثاني كُلَّ المسافة المتبقية، فوصلوا قبل أن يَحُلَّ ظلام اليوم الثاني ويبدأ ليله.

من بعيد.. كان المشهد واضحاً تماماً لجميع الذين وقفوا في أماكنهم يشاهِدون المصيبة التي تكشَّفت على حقيقتها وبانت كالشمس، وبذكرِ الشمس.. كان الغروب يضيءِ نصف الجدول الأيسر بينما ترك الجانب الأيمن منه دون ضوءٍ لينيره كما رأتِ القنادِس المشهد ونقلوه، فكان مشهداً ساحراً أخّاذاً.

كان أول ما لاحظته القنادس أن الجدول ينساب حتى مع وجود الصخرة تسُدُّ مصدر تغذيته، فكيف كان ذلك والصخرة العظيمة حقيقة لا خيال.. اقترب الفَطِن من الصخرة رويداً رويداً، ولَحِقَت به بعض القنادس يتسللون خلسةً ويراقبون مِن حولِهم خشية أن تكون الدببة مختبئةً في مكان ما، لكن أحداً لم يكن في المكان باستثناء الجدول والصخرة، نظر الفَطِنُ جيِّداً من حوله، ثم نظر نحو الصخرة فرأى أن مياه النهر تتسرب من جانبي الصخرة الأيمن والأيسر، فقفز في المياه فعلم أن المياه تتسرّبُ كذلك من أسفلها إذ لم تلامس الصخرة قاع الجدول مع أن مياهه ضحلة بل علقت بين ضفَّتي الجدول ملتصقة بصخوره، وكانت تلك الأسباب هي ما سمح للجدول بالجريان كعادته، لكن بسرعة تدفُّقٍ أبطأ من المعتاد.

تشاورت القنادس بدايةً في أفضلية بدء العمل أم انتظار وصول الدببة، واستقرَّ أمرهم في النهاية على أن يراقب أربعةٌ منهم المكان وأن يقوم البقية بالحفر، فتناوبوا على فعل ذلك، ومكّنهم هذا من التقدُّمِ سريعاً في خُطَّتِهم، فأقاموا بدايةً سداً أعلى الصخرة يقطَعُ إمداد الماء عن الجدول تماماً فلا ماء ليدفع الصخرة أو يتدفق من جانبيها أو من أسفلها، وبذلك ضَمِنوا أن الصخرة لن تتدحرجَ جنوباً نحو بستانهم، وقد تطلَّب بناءُ ذلك السدِّ عملاً حتى الفجر، وفي صباحِ اليوم الثالث منذ بدء الرحلة؛ كانت القنادس قد بدأت تُنشِئُ سدّاً آخر يقطعُ إمداد النهر عن تفرُّعِه الغربيّ في نقطةٍ تكون قبل تفرُّعِ الجدول، فيتوقف جريان النهر من الشَمال إلى تلك النقطة فيقف عندها، مما سيتسبب بالضرورة مع الوقت في فيضانه على جانبيه أكثر مما يفيض في حالة انسداد مجرى الجدول.

ومع نهاية بناءِ السدِّ الثاني تطلّبَ الأمر وقتاً أطول من الوقت الذي تم فيه بناء السدِّ الأول فانتهوا ساعة بزوغ فجر اليوم الرابع، وكان ذلك لأن عرضَ تفرُّعِ النهر غرباً أكبر من عرض الجدول، وهو كذلك أعمقُ وتيّارهُ أقوى بكثير، ولربما تظنّانِ أن تلك مُدّةٌ طويلةٌ هي التي قضتها القنادس تعمل في بناء السدّين؛ لكن الحقيقة أنها كانت مدّةً قصيرة جدّاً، والزمن قياسيٌّ هو الذي تمكَّنت

القنادس فيه من بناء سدّين متينين كاللذان شُيّدا، ومع أن التعب والإرهاق كانا قد تسلّلا إلى أجساد الجميع؛ إلا أن ذلك لم يثني القنادس عن متابعة عملها، فكان بعد إقامة السدّين أن ابتعدوا عن الصخرة غرباً بمقدار ثلاثة أغصان، ثم بدأوا الحفر في الأرض، فعمِلوا دون توقُّف، وعلى الرغم من أنهم كانوا قد أنهكوا أجسادهم في العمل ليل نهار، فكادت تتهاوى قِواهم لولا تشجيع القنادس لبعضهم بعضاً وتذكير أنفسهم بالهدف السامي الذي جاؤوا لأجله، ووجوب انتهاء الخُطّة التي حضروا لتنفيذها وإلا هلكوا جميعاً مع من بقي في البستان، وأن أصدقاءهم وعائلاتهم وكل القنادس تُعوِّلُ عليهم في حلِّ تلك المسألة وصدِّ المصيبة وحرفِ اتّجاهها عن البستان ومن يعيش فيه، فلم يقبلوا بالرّاحة وتابعوا العمل.

كانت شمس اليوم الرابع في كبِدِ السماء عندما أدركت القنادس أن التصميم الذي اعتمدوه في البناءِ بحاجة إلى شيءٍ آخر تسرّعوا فلم يتنبهوا لأمره، وهو حاجِزٌ من الأغصان يُطوِّقُ الصخرة من كُلِّ جانِب، لكنهم في تلك الساعة كانوا قد أتمّوا الحفرَ بقرب الصخرة فاختفت رقعةُ الأرضِ التي كانت تفصل بين الجدول وتفرُّع النهر غرباً، ما عدا مسافة الثلاثة أغصان التي تركتها القنادِسُ حتى النهاية، ما يعني أن نصف محيط الصخرة صار قريباً جدّاً من تيار

النهر الغربي لولا وجود السد الثاني الذي يمنع تدفق التيار، فأرادوا الشروع بإنشاء السياج حول الصخرة، لكن أحداً منهم لم يستَطِع تحمُّلَ المزيدِ والبقاء مستيقظاً، فسقط كُلُّ واحِدٍ منهم مغشيّاً عليه في البقعة التي خارت قِواه فيها من فرط الإجهاد والتّعب، وذلك كان لأنهم عملوا جميعاً دون توقُّفٍ فلم يتناوبوا على النوم والعمل بل على العمل والمراقبة، ولأن أعظم الخُطَطِ في العالم تحتاج شيئاً من الحظّ، كان أن أحداً من الحيوانات المتوحِّشة لم تظهر في الأرجاءِ مذ وصلت القنادس وحتى لحظة نومهم تلك.

نامت جميع القنادس يوماً كاملاً، فاستيقظوا وشمسُ اليوم الخامس في كبِد السماء، ففوجئوا بأنهم ما زالوا على قيدِ الحياة فلم يهاجَموا أثناء نومهم، فأيقنوا تلك الساعة أن كُلَّ ما يحيط بهم ينصاعُ لإرادتهم ويخضع لها حتى يُتِمّوا ما جاؤوا لإتمامِه وينتهوا منه، فقاموا في ذلك اليوم بإنشاء حاجِزٍ متينٍ من الأغصان أحاطوا به الصخرة من جميع الجوانب فَثَبُتت تماماً في مكانها، وذلك مكّنهم من إزالة قطعة الأرض الأخيرة المتبقية ذات المسافة البالغة ثلاثة أغصان، ولم يتبقى بعد ذلك سوى الخطوة الأخيرة؛ فقاموا قُبَيل غروب شمس ذلك اليوم بتقليل كميات الطين والحجارة التي ثبّتوا بها أساسات كُلٍّ من السدَّينِ والحاجز، ثم جلسوا حول الصخرة ينتظرون ويراقِبون، والأغصانُ

والأشجار والأفرع والحجارة متناثرة في كُلِّ مكان، فقد بلغ عدد الأشجار التي قطعتها القنادس ما يقارب عشرة أشجارٍ ضِخام، ومع أنهم يحتاجون غالباً إلى يومٍ أو اثنين لقطع كُلِّ شجرة؛ إلا أنهم تشاركوا في العمل جماعاتٍ كبيرة ففاقوا بسرعتهم ما تتخيّلانِه.

يراقبون قبيل الغروب بعيونٍ يفيض منها الأمل يرافقه تصميمٌ هائل على النجاح، فالخُطّة قد تمّت وحان وقت قطف ثمارها، فبدأت المياه تتسلَّلُ شيئاً فشيئاً من خلال الثقوب التي بدأت تكبُر وتكبُر بعد أن أزيلت كثيرٌ من دعامات السَّدّين والحاجز، وكان للقنادس ما قدّروا فانهار السدّان والحاجز في نفس الوقت، فتمكّنَ تيّارُ المياه من دفع الصخرة من الأسفل فارتفعت شيئاً قليلاً إلى السطح، ثم سرعان ما انجرفت غرباً مع تفرُّعِ النهر، فَقِطعةُ الأرض التي كانت تمنعها من ذلك قد أزيلت، وبذلك سَعِد الحفّارون المهرة، والبنّاؤون العباقرة، فهلّلوا وباركوا لأنفسهم نجاحهم، ثم قصدوا بستانهم جنوباً.

إن متوسط الوقت الذي تحتاجه الرحلة من البستان حتى رأس الجدول هو ثلاثة أيام، يومان في صعود المرتفع ويومٌ في نزوله، ومع أن القنادس تعلم بشأن تلك المدة التي تنتظرها لنزول المرتفع؛ إلا أن أرجلهم لم تتوقف عن الجري مسرعين يريد كُلُّ واحدٍ منهم أن يكون السبّاق في زفِّ النبأ السارِّ إلى بقية أبناء شعبه،

فالحماسة المفرِطة كانت جُلّ ما يشعرون به، فوصلوا في منتصف ليل اليوم الخامس، واستقبلتهم القنادس التي بقيت في البستان بحفاوة، فأنشدوا الأناشيد ورقصوا وعمّت الاحتفالات بُستانهم، وبينما هم في ذلك إذ تسلَّلَ المستدير بين أشجار البستان ثم جاءهم يجري ويصيح فأفزع بعضهم ووجّهوا نظرهم نحوه، فقال: «قلتُ لكم إنها مؤامرة، لقد أمسكتُ بأحدِ الغربان قبل قليلٍ أراد أن يغدِر بنا ويسرق منّا فرحة نصرنا العظيم فاستجوبته، واعترف ذاك اللعين بِكُلِّ شيء»، فوجِئَت القنادس بكلام المستدير فقال أحدهم: «وماذا قال لك وعن ماذا أفصح الغراب؟»، ومع أنه قد قال كلماته السابقة دفعةً واحدة؛ إلا أن المستدير قد أجاب على السؤال وهو يحاول جاهداً أن يبدو كمن يلتقط أنفاسه من شِدّة التعب والإجهاد؛ فقال: «لقد.. قال.. أن الغربان اتّفقت على أن.. يأخذوا منّا بستاننا... وذلك عن طريق تحالفهم مع الدِّببة ووضع الصخرة.. في مسار تيّارِ الجدول»، ثم تظاهر بأنه يمسح العرق عن جبينه ونظر نحو السماء وأخذ يتنفَّسُ بهدوءٍ ثم قال بعد أن وجّه أنظاره نحو القنادس: «قلتُ لكم إنها مؤامرة على بستاننا الحبيب، لكن لا تخافوا ولا تقلقوا، فقد أنذرت الغراب وهدّدته بأن الموت هو ما ينتظر الغربان إن هي عادت إلى هنا، وصفعتُهُ بذيلي على وجهه حتى فقأتُ عينه وأدميت رأسه، كي يعلم أننا لا

نقول أمراً إلا فعلناه»، قال الفَطِن متدارِكاً: «وأين هو الآن؟ ذاك الغراب..»، قال المستدير: «ما هذا السؤال الغبيُّ أيها الفَطِن؟ بالطبع لقد أطلقتُ سراحه حتى يُحذِّرَ أسراب الغِربان فيعلموا بأن اليد العُليا لنا، وأننا أصحاب بأسٍ شديد لا نعرف الشفقة أو الرحمة عند ملاقاة الغادرين الخونة»، كانت كلماتاً مبهمةً وغريبة، فلم يعرِف جمعُ القنادس كيف يتفاعل معها، فقال المستدير بعد أن رأى أن الجميع قد صمت من حوله: «ماذا تفعلون!! هيّا نتابع احتفالاتنا فلقد أخمدنا نيران المؤامرة قبل اشتعالها وقطعنا دابر الشرَّ وأرهَبنا أعوانه، هيا احتفلي أيتها القنادس»، ثم أخذ يُغنّي ويرقص في المكان، وفعل الجميع مثله ولم يأبهوا كثيراً بقصّته، ولربما تقبّلَ بعضهم أن ذلك كان طبع المستدير في المشاركة في كلِّ ما يحدث بطريقته الخاصّة.

«

قال الماسيُّ وهو يضحك: «ذاك المستدير اللعين، بالطبع كان يكذب، فلا وجود لغرابٍ ولم يُمسِك أحداً بل اختلق روايته تلك حتى لا يظهَر كذّاباً يدّعي

أموراً غير موجودة»، ووافقه فاتِكُ في الرأي فقال: «هذا صحيح، لا يُمكِن أن يكون وجودُ الغرابِ حقيقةً وإنما ابتدع ذلك المستدير الأمرَ حتى لا يُنبَذَ فيصير مُهاناً غير مُصدَّقٍ بين أبناء جنسه، يا له من وغدٍ لا يعرِفُ أخلاقاً أو مبادِئ ليعيش وفقها»، وتبادل الذئب والدُّبُّ بعض الكلمات في شأن القِصة، حتى قال الماسِيّ متداركاً ما فاته: «لحظةً واحدة.. أين هم القنادس اليوم أيتها السلحفاة الحكيمة؟ لا أحد هنا غيرنا، لقد أخبَرتِنا أنهم انتصروا على أعدائهم وأنقذوا بستانهم من الهلاك، هل غادروا وتركوه خلفهم أم ماذا؟»، قالت لبيبة ساخرةً: «إنما أنت أيها الماسيُّ من اختار نهاية القِصّة عندما قاطعتني أيها العجول فتشاركتما الآراء فيما ارتأيتما أنها الخاتمة، أما الحكاية فلا تنتهي هنا، فلم يَكُن المستدير يكذِب تماماً عندما قال أنه أمسك طائراً فصفعه وفقأ عينه وأدما رأسه، وإنما كذب عندما قال أن الطائر كان غراباً، وأن المؤامرة حقيقة، فقد كان الطائر الذي عذّبه المستدير طائر حدأة، وأراد المستدير أن يقتله بعدما عرف حقيقته لكنه أفلت من بين مخالبه وطار بعيداً، وكان الاحتفال والصراخ والغناء والليل الحالك ما أوقع المستدير في الخطأ فظنَّ الحدأة طائراً وديعاً آخر، فأجبر هروبُ الطائرِ المستديرَ على إنهاء قِصّته بتلك الطريقة، والحقيقة أن طائر الحدأة طار يصيح من شِدّة الألم جرّاء فعلِ القندس المستدير

به، ولم يسمعه أحدٌ لصخب الاحتفالات في البستان، لكنه تحامل على آلامه وطار حتى وصل بعد أيامٍ إلى جماعته من أسراب طيور الحدأة، وقصَّ عليهم ما وقع عليه من ظلمٍ وأذى، وكان في ذلك الوقت أن انتشرت قِصّةُ تآمُرِ الغربان على القنادس وذاع صيتها في عالم الحيوان كما ذاع صيتُ قصّة إنقاذ البستان، وذلك جعل طيور الحدأة تتحالف مع الغربان، فالأولى تريد الانتقام لأحد أفرادها والأخرى تريد الانتقام لما طال سمعتهم من أذى، فقيل أن الغِربان طارت حتى وصلت بلاداً بعيدةً يُعرَفُ ساكنوها من المخلوقات الغريبة بقدرتهم على التحكّم بالنار، فالتقطت الغربان أغصاناً مشتعلة وأخرى غير مشتعلة، وطارت بها تقصِد بستان القنادس، حتى إذا ما شارفت النيران أن تأكل نفسها في الطريق فتنطَفِئ في الغصن المشتعل نزلوا مكانهم وأشعلوا غصناً آخر، وكرروا فعلهم ذاك حتى نقلوا النيران عبر أراضٍ ومساحاتٍ واسعة، فوصلوا أخيراً وجهتهم فرموا بالأغصان المشتعلة في بستان القنادس في ليلةٍ مظلمة لم تعرف القنادس ما المصيبة التي حَلّت عليها أو من أين أتت، فَهَبّوا إلى إطفاءِ النيران بالاستعانة بمياه الجدول، لكن طيور الحدأة بدأت عملها سريعاً فنقلت النيرانَ من موضعٍ إلى آخر في البستان فاشتعل عن آخره، ولم يتركوا للقنادس فرصةً لإنقاذ موطنهم، ونُقِل أن القنادس جميعها كانت تصرخ من الخوف والفزع مما

كان يجري في بستانها باستثناء المستدير الذي استمرَّ يُردِّد: «قلتُ لكم إنها مؤامرة، إنها مؤامرة!!»، فهلك من هلك من القنادس وفرَّ منهم من فَر، وقد أقسمت طيور الحدأة أنها ستشعل المكان بمن فيه إذا ما عاد إليه حيوانٌ بعد تلك الساعة».

قال الماسِيّ منزعجاً: «ما هذه النهاية أيتها الحكيمة؟ هل نجا الفَطِن وهلك المستدير كما يجب أن يحدُث؟»، قال فاتِك يسأل بدوره: «نعم، قولي لنا أرجوكِ هل هلك الأحمقُ الكاذب المستدير؟»، صمتت لبيبة لبعض الوقت وأغمضت عينيها، ثم فتحتهما وقالت: «ما ذلك بيتُ القصيد أيها الأحمقان، إن كان هناكَ عِبرةً من الذي حدث فهي جهلُ المستدير واندفاعه نحو اختلاقِ الخيالات والأوهام حتى لا يقومَ بواجبه في الدفاع عن حياته وحياة بني جنسه، فقد آثرَ التخاذُلَ فاختلق وهماً ولم يجري وراء الحقيقة ولم يعرِف لها سبيلاً، فكانت فِكرةُ المؤامرة من منظوره مجرَّدَ قِصّة أُخرى يَقُصّها بين أصدقائه وأعوانه وأقاربه ومن رضي بالاستماع له، لا تتطلب جهداً ولا تفكيراً يُذكر، فلا أسباب واضحةً ولا منطِق يتطلب اتّباعه للوصول إلى الحقيقة، فكان من الأسهل عليه الاختباء وراء الكذب على أن يُجهِد نفسه في سبيل معرفة الحقيقة، وعند تكشُّفِ الحقيقة رَفَض التسليم بها وتصديقها لأنها لم تتوافق مع

ظنونه الكاذبة فعاد يختلق الأكاذيب وينشرها كُلَّما استطاع ذلك، فاستحسن حلاوة الوهم على أن يُجرِّب مذاق الحقيقة المر».

تبادل الدُّب والذئب النظرات، ثم قال الماسيّ: «ماذا تقولين أيتها الحكيمة؟ هل ننظر إلى العِبرة هنا؟ أم نبحث لنرى هل وقع ظُلمٌ على من لا ذنب له في تلك القِّصة، فأما القِصّة الأولى التي قَصَصتِها علينا فلقد اتفقنا جميعاً على جهل الحيوانات ورضاها بمصيرها، لكن القنادس أبرياء لم يصنعوا الوهم ولم ينقادوا خلفه بل كان المستدير ومن صدّقه هم من فعلوا»، قال فاتِك يدعَمُ رأي صاحبه: «هذا صحيح، فأيُّهما أهمّ؛ الحياة؟ أم الحقيقة؟»، شعرت لبيبة بشيءٍ من الغَضَب، لكن سِنِيَّ عمرها الطويلة علّمتها الهدوء وضبط أعصابها فقالت: «لا أدري أيها الدُّب أهي الحياة أهمُّ أم الحقيقة، لكن ما أعرفه أيها الذئب أن القنادس لم تكن بريئةً تماماً، فهم لم يصنعوا الكذبة تلك، ولم يشاركوا فيها، لكنهم هُم من سمحوا للمستدير بإذاعتها دون دليلٍ أو برهانٍ على كلامه، وقد دعمه قسمٌ منهم وأيّد كلامه أكان متخاذلاً مثله أم جاهلاً لا يقوى على التفكير وحده، وبذلك سمحت القنادس جميعها دون استثناءٍ بأن يُفتَح بابٌ للجهل عظيم، ولم يدخُل الجهلُ لوحده من ذاك الباب؛ فلقد تَبِعه الشرُّ والهلاكُ والظلام، وكان ذلك كُلّه بعدما رضيت القنادس في أكثر من

مناسبةٍ بنشر الأكاذيب وتركها تسرح في بستانهم، بصوتٍ عَلا على صوتِ الحقيقة، فسواءٌ أصدّقوا المؤامرة أم لم يفعلوا فذلك لم يكن مهمّاً، المهم أنهم سمحوا لها بأن تأخذ حيّزاً من حياتهم وتقوم مقام الحقيقة».

لم يُعجِب فاتِك أو ماسيّ الكلام، فقال الذئب: «لا أدري حقيقةً.. أظنُّ أن هذه القِصّة غير حقيقية، لا تستوي النهاية مع ما كنتُ أظنُّ أنه سيحدث، وهي كذلك تمتلك تسلسلاً غير واضحٍ تماماً، وخاتمةً لا يقبلها عقلٌ أو يُصدِّقها حيوان، فلأجل طائر حدأة أحرقوا بستاناً وساهمت الغربان في ذاك الصنيع، لا أدري أيتها الحكيمة..»، قال فاتِك: «إنني أرى كما يرى الماسيّ يا لبيبة، فنحن لم نسمع في القِصّة عن الدّببة، فكيف هم تركوا مصير الصخرة مرهوناً بيد غيرهم؛ بعد أن قلتِ لنا أنهم ينتظرون قدوم القنادس ليفتكوا بهم؟ هذه قِصّةٌ لا أظن أنني سأصدقها».

همهمت السلحفاة كعادتها كلاماً لم يكن واضحاً، ثم قالت بنبرتها الهادئة البطيئة الرزينة: «أمرُ تصديق الحكاية من عدمها يعودُ لكما، لكن القِصّة حقيقية، حدثت في زمنٍ كنت أنا ما أزال صغيرةً فيه، لكنني سمعتها من والدتي بعدما سافرت الحكاية في شتّى بقاعِ الأرض ووصلت إلى أرضِ السلاحف، وقد رواها لنا غرابٌ كان قد شهد الواقعة وعلِم أسرار الحكاية من الغراب الذي

حذّر القنادس وأعلمهم بسدِّ الصخرة مجرى الجدول في بادئ الأمر، لكنه قال أيضاً أن تلك الجزئيّة لم تكن صحيحة، وإنما اختلق الغرابُ أمر الدِّببة من تلقاء نفسه، وإنما قالت الغزلانُ أنها رأت تصدُّع جبلٍ عظيمٍ في الشمال وانهيار أجزاءٍ منه قرب النهر، فسقطت تلك الصخرة العظيمة فيه وسارت مع تياره حتى عَلِقت في النقطة التي يتفرَّعُ فيها الجدول. وذلك لربما كان خطأً آخر قبِلت به القنادس دون أن تُفتِّشَ عن الحقيقة، فرَضِيَت بالعدوِّ الوهميّ لأن حادثةً كانت قد وقعت بينهم وبين الدِّببة قبل ذلك بوقت قصير، ولا يُلامون كثيراً على تصديقهم للأمر، لكنه الفَطِنُ وزوجته كانا أكثر ذكاءً من الجميع، فلقد آثرا التركيز على حلِّ المشكلة، ومع ذلك فلا يمكننا القولُ بأنهما كانا أذكياء كفاية، فلو كان أمرُ الدِّببة حقيقةً لقام الدُّبانِ بوضعِ صخرةٍ أخرى مكان الأولى وبذلك يعود الخطر الذي يُهدِّدُ حياة القنادس كما كان في بادئِ الأمر، ولربما زاد المستديرُ الطينَ بِلّةً بأمر تلك المؤامرة التي اختلقها فأودى بموطن القنادس وبحياة كثيرٍ منهم؛ إلا أن القنادس افتقرت للمنطق منذ البداية فلم يسلكوا مسالكه، ولذلك لم تكفيهم مهارتهم في التخطيط والبناء والحفر، ومع أنهم بذلوا جهدهم في تخليص أنفسهم من خَطَر الصخرة إلا أن تلكَ كانت مشكلةً واحدة، بينما كان قبولهم بالمؤامرة وما صاغها من جهلٍ وغيابٍ

للإدراك السليم للأحداث وكيفية تشكُّلِها؛ أَحَدَ أهمِّ الأسباب التي خلقت تلك الخاتمة»، صمتت لبيبة لبرهةٍ حتى شربت من مياه الجدول ثم عادت تُكمِل كلامها فقالت: «لا أدري صِحّة ما سأقوله الآن لكن؛ يقالُ أن الجدول فاضَ حزناً على القنادس وعلى ما حلَّ بهم فأطفأ النيران بعد أن اشتعلت لثلاثة أيامٍ متتالية في البستان، وكانت مياهه هي ما ساعد البستان على العودة إلى الحياة مجدّداً، لكنَّ صدى تهديد ووعيد طيور الحدأة ما زال يتردد في عالم الحيوان إلى يومنا هذا، ولذلك لا يعيشُ أحدٌ هنا، فيَمُرُّ مِن البستان من يَمُرُّ لكن أحداً لا يطيل المكوث فيه».

قال الماسيّ: «لربما سأصدِّق الحكاية لأنكِ من قصَّها علينا، ولولا ذلك لما صدّقتها، فأنا ما زلتُ أشعرُ بالحزنِ على ما حلَّ بالقنادس مهما كان شكلُ كلامِكِ حولهم أيتها الحكيمة».

قال فاتِك: «وأنا أوافِقُك الرأي أيها الماسيّ، فلقد صدَّقتُكِ أيتها السلحفاة عندما قلتِ إن ينبوعاً يوجد في شمال الأرض يعيش خالداً من يشرَبُ منه، ولن أُكذِّبَك الآن في حكاية، وسأصبِرُ على مشاعري المهتاجة ولن أدعها تتحكّم بي، مع أنني حزينٌ مثلك أيها الماسيّ».

قالت لبيبة: «حسنٌ إذاً، سأقول أنا الشعر هذه المرّة، لَعلَّكُما تَهتديانِ إلى رأيٍ تثبتان عليه بعد سماعكما له».

فوجِئ الماسيُّ بما سَمِع فقال: «إنني أعرِفُكِ منذ مُدّةٍ ليست بالقصيرة، ولم أعرف أنكِ تقولين الشعر أيتها الحكيمة»، فأجابت لبيبة: «في الحقيقة أنا لا أقوله، لكنني أُعجِبتُ بما قال فاتِكُ آخرَ مرّة، وأريد أن أقول شِعراً، فاستَمِعا..

**يُحكى يا من تسمع قولي**

**أن الفُرقة فقرٌ، ضعفٌ**

**والوحدة قوّة وكمال**

**لكن إن يَكُ بينَ الجمعِ مُريبٌ**

**يكذب يروي قِصصاً شتّى**

**لا تخطر أبداً في بال...**

فيُصدِّقُ نفسهُ ويُصَدَّق
فيُخيَّلُ في عقلِهِ أنّه
ينطِقُ دُرراً أو أمثال

فَمَعَ أن فِعاله قد أودَت
بالجمعِ إلى قعرِ القاعِ
لم يأبه منكودٌ إلا
بأن يمسي للفِهمِ مثال

فإذا الجمعُ بجهلٍ أعرَضَ

أغفَلَ بِتراخٍ إلجام
ظنَّ حُميّـِرُ نفسه بطلاً
ولم يصمِت ذاك المحتال

فقل لي يا فَطِنُ وأخبرني
ما نفعُ بناء الأنزالِ
إن كان أساسك صلصال

لا ينتصر الجيشُ بحربٍ
دون قتاله جسداً واحد
وإلا فيجُرُّ الأذيال

إن وَجَبَ التَّصديقُ بِأمرٍ

فمن الحـُمقِ الوهمَ يكون

ومن الحـُمقِ كثيرُ العَبَثِ

فعادته ينقَلِبُ الحال

فإذا قيل هناك بلادٌ

تنعمُ برخاءٍ وسلام

فغداً تُحرَقُ عن آخِرها

وصَدُّ القَدَرِ لأمرُ مُحال

هذي الأرض قِصَصُها عَجَبٌ

فيها العِبَرُ وفيها العِظَةُ

والكلمة فيها تَنتَقِلُ

يعرِفُها كثيرُ التجوال

ما الخاتمة بأمرٍ يقدِرُ

يستوعبه أيّاً كان

بل تحتاجُ لقلبٍ خالٍ

خاوٍ من كُلِّ الآمال

هذا العالمُ قاسٍ ظالم

فحياة الأحياءِ قِتالٌ

فمعارِكُ وحروبٌ عُظمى

والسِّلمُ سرابٌ وخيال

«

وبعد سماعهم شعر لبيبة؛ أكمل الأصدقاء مسيرهم شمالاً...

# النهاية

Facebook: www.facebook.com/amerdpov

Instagram: @amerdpov